اللغة العربية وروافد الثقافة في القرن التاسع عشر (*)

مقدمة:

اللغة العربية وعاء الفكر والثقافة العربية الإسلامية، وقد تأثرت بالحراك الثقافيّ داخل المجتمعات العربية وخارجها؛ فقويت بقوة أهلها وازدهار حضارتهم، وضَعُفت بضعفهم وتراجع تلك الحضارة؛ خلال الصراع الطويل بين العرب وأعدائهم من أصحاب الثقافات الأجنبية.

ويعكس هذا الصراع في عمومه بُعْدًا من أبعاد التمرد الفكريّ والثقافي، أو التبعية الأيديولوجية لأمَّة ما على غيرها من الأمم. وهذا البعد بقطبيه –التَّمرد والتبعية– وليدُ صراع إنساني أخذ منذ بداياته الأولى مظهرًا عسكريًّا، ثُمَّ تغيَّرت خطّطُ المستعمرين في السيطرة على الشعوب، بعد أن ثبت عدم جدوى هذا المظهر السُّلْطَويّ للمنتصر والمهزوم على حَدٍّ سواء، حيث أدرك السياسيون أنفسُهم أنَّ أي انتصار أو هزيمة يقف وراءهما انتصارٌ أو هزيمة علمية وجمود فكري ثقافي لتلك الأمة، وهذا ما أكده رئيس الوزراء الياباني بعد هزيمة بلاده في الحرب العالمية الثانية؛ قائلًا: إن هزيمة اليابان كانت في المعمل، وليس في الحرب.

وانطلاقًا من هذا التصور؛ يمكن تحليل حالات الانتصار والانكسار التي مرَّت بها الأمة العربية والإسلامية في صراعها مع الأمم الأخرى. فاستقراء الأحداث التاريخية لأمتنا يثبتُ أنَّ النهضة الفكرية والثقافية في مجالاتها المختلفة كانت وراء كل انتصار مادي ومعنوي. ويُقاس على ذلك تراجع تلك النهضة، وأثرها في ضعف الأمة في مجالات التعليم، والاقتصاد، والصناعة، والنفوذ العسكري، فأين اللغة العربية من صراع الأمة العربية الإسلامية مع الاستعمار الأوربي في القرن التاسع عشر؟ وهل كانت هزائمنا وانتصاراتنا نتائج منطقية لمقدمات من الانتصار أو

الانكسار الفكريَّيْنِ؟

هذا ما نطرحه للنقاش والمثاقفة من خلال المحاور الآتية:

- **المحور الأول: علاقة اللغة بالثقافة.**
- **المحور الثاني: اللغة العربية وروافد الثقافة الاستعمارية.**
- **المحور الثالث: اللغة العربية وروافد نهضة الفكر العربي.**

- **المحور الأول: علاقة اللغة بالثقافة.**

علاقةُ اللغةِ بالثقافةِ مُتَجَذِّرةٌ في حياة الأمم؛ فكلُّ تجمع بشري يُوجِدُ لغةً يتعارف أهلوها عليها، ويتواصلون بها فيما بينهم؛ فهي أهم مقومات بشريتهم، ووجودهم في هذه الحياة، ومُوَجِّهٌ رئيسٌ لثقافةِ مجتمعهم، وفكر أفراده، وتصورهم لقضاياه. وعلى أساس هذه العلاقة؛ فليس من المنطق عزلُ أزمةِ اللغةِ في مجتمع ما عن أزمته الثقافية، ومعركته المصيرية مع الثقافات الأخرى؛ فاللغة تعكس هُوِيَّةَ المجتمعِ، وهُوِيَّةُ ذلك المجتمع جزءٌ من ثقافته، بمعناها الجَمْعِيّ الشامل [cliii].

وعند بحث هذه العلاقة في الثقافة الإسلامية سنجدها ذات خصوصية، مبعثها ارتباطها بالقرآنِ الكريمِ الذي جعلها لغةً نموذجيَّة مثالية؛ فكان امتدادها وتأثيرها في حياة الأمة الإسلامية، ومن ورائها حياة الأمم والشعوب رهينًا بامتداد أثر هذا النص المطلق المعجز، وتعاليم ذلك الدين الحنيف فيهم على حَدٍّ سواء. وأُؤكد أنَّ هذه العلاقةَ لم تَضْعُفْ يومًا ما، بدليل بقائها في أوربا، بعد هزيمة المسلمين واضمحلال دولة الخلافة فيها؛ فالعربية كانت –ولا تزال– مُقَوِّمًا للثقافة الإسلامية عند المسلمين غير العرب، حيثُ بقيت ببقاءِ هؤلاء، كما أنَّها اضمحلت بخروجهم، واستئصال شأفة الإسلام من بعض الممالك، كما حدث بإسبانيا عن طريق التطهير العرقي، ومحاكم التفتيش؛ فإن ظهور النزعات القومية عند هذه الأمم غير العربية يستدعي إحياء لغاتها وألسنتها؛ فتنحسر العربية بوصفها لغة التداول، وإنْ أقامتْ على الإسلام دينًا بالقرآن الكريم [cliii].

وقد أوجدت علاقة العربية بالثقافة الإسلامية نوعًا من التَّبَدُّلات اللغوية، والتَّحَيُّزات الثقافية في المجتمع العربي خاصَّة، والمجتمع الإسلامي عامَّة. أما التَّبَدُّل اللغوي؛ فيمكن تلَمُّسه في الألفاظ الإسلامية، والأعراف الشرعية التي اكتسبها المعجم اللغوي العربي من ارتباط تلك اللغة العصماء بذلك النص القرآني المعجز، وفقدانه بعض الألفاظ الجاهلية التي لا تتفق مع تعاليم هذا الدين الحنيف. أما عن التّحَيُّزات الثقافية التي جسدتها اللغة بوصفها منهجًا في التفكير ونقل الأفكار، فهي ماثلة في العقيدة الإسلامية، والقيم، والأخلاق، والمعاملات المشتركة بين أفراد هذا المجتمع الجديد. وبالتالي غدتِ اللُّغة العربيةُ معبِّرةً عن حضارة ذات ثقافة إسلامية خالصة، وعن تصور فريد لحقائق الألوهية، والكون، والإنسان، والحياة يتسق مع المنهج الكلي لحياة المسلمين في سائر بقاع الأرض، حتى ولو جاورتها ثقافات أخرى مخالفة لها.

إنَّ المتأمل في تاريخ الثقافات الإنسانية لَيَجِدُ اختلافاتٍ غيرَ محدودة في تصور الثقافة الإسلامية لهذه الحقائق الأربعة عن غيرها من الثقافات الأجنبية. فالثقافة العلمانية، أو الثقافة الشيوعية، أو الثقافة البرجماتية النفعية، أو الثقافة البوذية ... وغيرها تتصور هذه الحقائق من خلال نظريات وأفكار بشرية ينتقيها صفوة من أفراد مجتمعاتها، ثم يسعون إلى أن تكون هذه الأيديولوجيات منهجَ حياةٍ لهم؛ لكنَّ التصور الإسلامي لهذه الحقائق جعل الثقافة الإسلامية ثقافة "ربانية" المصدر والغاية، تنفرد بعقيدة التوحيد، وهي ثقافة "عالمية لا عولمة"، مبنية على الحرية وتعترف بثقافة الآخر، وهي ثقافةٌ تُرْسِي أخلاقَ العمرانِ والتنميةِ، كما أنها ذاتُ ثوابتَ ومتغيراتٍ مرهونةٍ في تَغَيُّرها بمنهج الله تعالى، وتتصف هذه الثقافة أيضًا بالشمول والتكامل، وتُحَوِّل السلوك الإنساني إلى عبادة؛ فهي ثقافة "متوازنة وإيجابية" في علاقة الإنسان بالله والكون والحياة. ومن خصائصها كذلك أنها ثقافة "واقعية"، تدفع الإنسان إلى السلوك الذي يُوافق عالم الواقع، وحقائقه الموضوعية[cliii].

وهذا يفسر لنا بقاء هذه الثقافة، وعدم تَبَدُّلها حتى في فترات الضعف واضمحلال نفوذ الحضارة الإسلامية. وذلك بخلاف الثقافات الأجنبية الأخرى التي نرى أنه من السهل التأريخ لبدايتها ونهايتها، وحصر مواطنها الجغرافية، ولغاتها المعبرة عنها تلك التي أحالتها إلى ثقافات متعددة منبثقة، لا ثقافة واحدة، فالعلمانية موطنها أوربا، ولغات مجتمعاتها هي الإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، والإيطالية، ... إلخ. أما الشيوعية فمحصورة في دول الاتحاد السيوفيتي قبل تفكُّكه، وقد سَعَتْ روسيا إلى فرض اللغة الروسية على هذه الدول؛ لتغيير ثقافة شعوبها التي عرفت الإسلام ومارست تعاليمه، وتعلمت

لغته العربية. وكذلك الثقافة البرجماتية النفعية في الولايات المتحدة الأمريكية التي رسَّخت نظرية نسبية القيم، والأخلاق في التعامل مع مصالحها في الداخل والخارج.

ومن جهة أخرى، أثبتت التجربة أنَّ تَبَنِّي مثل هذه الثقافات الأجنبية في الدول العربية والإسلامية لا يعبر عنها غيرُ لغاتها الأمّ التي ارتبطت بها، وهذا يصدق على الثقافة الإسلامية ذاتها في كل موطن تَحُلُّ فيه؛ فاللغة على حَدِّ قول **هنري بر**: "موطن الفكر، والموطن شيء آخر غير المجتمع" [cliii]. ولذلك استطاعت اللغة العربية أن تشكل فكر الأمة الإسلامية؛ فمثلت المجتمعات (الدول) العربية بامتدادها الجغرافيّ على الأرض، وهذه المجتمعات قد تتشابه في كثير من أنماط حياتها مع مجتمعات أخرى؛ غير أن العربية ظَلَّتِ الطابعَ المميزَ لهذه الأمة لا للمجتمع، وانعكاسًا لوحدة فكرها. وهذه نتيجة نَتَلَمَّسُها في تعلُّم اللغات الأجنبية؛ فالعربيُّ عندما يمارس لغة غير لغته فإنه يفكر بها، وكذلك الأجنبي عندما يتعلم العربية ويمارسها، فإنه يتأثر بطريقة تفكير أهلها، ومِنْ ثمَّ لفظتِ الأمةُ العربية الإسلامية كلَّ الدعوات التغريبية الاستعمارية إلى تغيير هويتها، واستبدال ثقافتها، ولذلك بَقِيَتْ هذه الثقافة، وتلك اللغة رغم ضعف أهلها في فترات متباعدة من تاريخ الحضارة الإنسانية.

- **المحور الثاني: اللغة العربية وروافد الثقافة الاستعمارية.**

الفكرُ الاستعماريُّ في القرن التاسع عشر الميلادي امتدادٌ لسلسلة الحملات الصليبية التي دحرها المسلمون في غير خندق وثَغْر؛ فهو فكرٌ تُؤَجِّجُه دائمًا نيرانُ الحقد على الإسلام، وتُؤَرِّقُه مرارةُ الهزائمِ المتلاحقةِ؛ لذلك بحثَ الاستعمارُ عن روافدَ تُعِيدُ تشكيلَه، وتُلْبِسُه إهابَ الفكر والثقافة والعلوم، الذي تنبهر ببريقه العقولُ الجامدة والأممُ المتخلفة عن ركب الحضارة الإنسانية؛ فهدفوا بذلك إلى الهيمنة العسكرية، والسيطرة الفكرية على الشعوب العربية. ولعل أبرزَ هذه الروافد وأخطرها أثرًا رافدَا الاستشراق والتبشير؛ حيث تلاقت أفكار المستشرقين والمبَشِّرين مع طموحات السياسيين، وتَوَحَّدَتْ أهدافهم نحو تشويه الثقافة الإسلامية لدى أهليها، ودمج الأمَّة العربية في الحضارة الأوربية في ذلك القرن، وما يليه من قرونٍ، أَحَالَتِ المسلمين إلى عصورٍ من التبعية الفكرية، والحتمية الثقافية للمستعمر المتَغَلِّب.

1) رافد الاستشراق:

لا أجدُ فيما بلغني من دراساتٍ نقدية للفكر الاستشراقي، وأثره في الثقافة الإسلامية إشارةً إلى البدايةِ الزمنيةِ الفعليةِ لظهوره وممارساته والإعلان عنه، بوصفه رافدًا من روافد تشكيل الفكر الاستعماري وسيطرته على الأمة الإسلامية؛ غير أنَّ ما يُطْمَأَنُّ إليه أنَّ هذا الفكر نشط عقب هزيمة الحملات الصليبية؛ بهدف الثأر من المسلمين، فكانت دراسةُ المستشرقين تراثَ هذه الأمة المتَغَلِّبَة عليهم، وعقيدتَها، وفكرَها، وجوانبَ حضارتها وجهًا من وجوه تصحيح الأخطاء في معسكرهم، أو نوعًا من الانبهار بالمنتصر، على حَدِّ قول **ابن خلدون**: "المغلوب مولعٌ أبدًا بالاقتداء بالغالبِ في شعارِه، وزِيِّه، ونِحْلَتِه، وسائرِ أحوالِه وعوائِده" [cliii].

ربما تَصْدُقُ هذه المقالةُ في المحاولات الفردية الأُولى للمستشرقين، قبل تأسيس المؤسسات والمعاهد الاستشراقية على أسس علمية وأكاديمية. لكنْ قد يُخْفِي هذا الولعُ بتراث هذه الأمة وراءَه في كثير من الأحيان أغراضًا سياسيةً للهيمنة

العسكرية على الشعوب العربية؛ فقد انتفع الغزاةُ –مثلًا– بكتاب "أخلاق وعادات المصريين المعاصرة"، الذي ألَّفه المستشرق الإنجليزي **إدوارد لين** عام 1836م، فكان مرجعًا أنثروبولوجيًّا لأول دراسة استشراقية عن المجتمع المصري، وعادات المسلمين فيه، وهي جزء من الثقافة العربية الإسلامية التي سَعَتِ الدول الاستعمارية الأوربية سعيًا حثيثًا إلى فهمها ودراستها؛ قبل غزوها للبلاد العربية [cliii].

فعلاقة الاستشراق بالاستعمار والسياسة حقيقةٌ في واقعنا العربي؛ فهو القوى الفكرية الناعمة التي تعمل مع القوى العسكرية الغاشمة؛ من أجل بسط سطوتها على العالم الإسلامي؛ وذلك بهدف زعزعة ثوابت الثقافة الإسلامية في نفوس أهليها، والتشكيك في أصولها المسْتَقَاة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، والتشكيك في قيمة الفقه الإسلامي والتشريعي للمجتمع، وفي قدرة اللغة العربية على مسايرة التطور الحضاري وعلومه الحديثة، وغرس روح الجمود في آدابنا العربية، لنَتَّجه إلى آدابِ الغرب، وهذا هو الاستعمار الفكري والأدبي الذي يَبْغُونَه مع الاستعمار العسكري الذي يرتكبونه [cliii].

وقد اقتضتْ طبيعة نشأة الفكر الاستشراقي للمستعمر، وظروف الأمة الإسلامية في القرن التاسع عشر إلى تقسيم التراث الفكري للأمة إلى تراث ديني، وتراث لغوي. ورغم أن بواعثَ تعلُّم المستشرقين اللغةَ العربيةَ وعلومها، ودراسة التراث الإسلامي تصدر عندهم عن نوازع الكيد والحقد والتشكيك؛ فإنَّ منهجهم اتَّسم بالموضوعية في دراسة التراث اللغوي إلى حَدٍّ كبير، واتَّصف بالذاتية وافتقر إلى المنهجية في معالجة التراث الديني، فما أسباب هذه المفارقة المنهجية؟

أما عن تشكيك المستشرقين العقديّ في تراث الأمة الديني؛ فيرجع لأمرين:

الأول، احتكاكهم العسكري بالمسلمين، وهزائمهم؛ فإنَّهم وجدوا مكمنَ قوة هذه الأمة وتفوقها في كل جوانب الحضارة الإنسانية في صحة هذا الدين وتمسكهم بعقيدته؛ فالانتصار في الميدان يقف وراءه انتصارٌ فكري وعلمي وثقافي؛ ومن ثمَّ لم يَأْلُ هؤلاء المستشرقون ومَنْ لفَّ لفَّهم جهدًا في نزع الأمة من ثقافتها، واستبدال الثقافة الغربية للمستعمر بها؛ بدافع المغالطة الفكرية أو المباهاة بتفوق حضارتهم الحديثة على المسلمين في القرن التاسع عشر الميلادي وما بعده.

والأمر الثاني، وحدة المنهج واتفاق الهدف؛ بمعنى أنَّ الاستشراق كان يعمل أيضًا لأغراض تبشيرية في نشر الدين المسيحي، واستبداله بالدين الإسلامي بعد تشكيك المسلمين في عقيدتهم، ونشر الفتن والخلاعة والمجون في مجتمعاتهم، فكان من المستشرقين مبشرون، وباباواتٌ، ورهبانٌ، ورجالُ دين.

لَكِنْ لم يكن تشكيكهم في اللغة العربية بنفس الدرجة التي سعوا إليها مع الثقافة الدينية لشعوب هذه الأمة؛ فهم أفادوا من اللغة أكثر ممَّا أفادت هي منهم، إذْ وجدوا أنَّ ثمرة استبدال لسانٍ بآخر في بداية حركة الاستشراق لا يُؤْتِي أُكُلَه إلا على المدى البعيد، وأنَّ البحث في اللغة وعلومها وأدبياتها رفاهية علمية وفكرية، وهذا أمر بحاجة إلى توطيدِ المستعمراتِ والهيمنة عليها، فهي جزء من العمران البشري وطبيعة راسخة فيه على حدِّ قول **ابن خلدون** [cliii]. فقد شهد القرن التاسع عشر إقبال المستشرقين على تَعَلُّمِ اللغة العربية، وفهم أسرارها؛ فهي وسيلةُ التواصلِ الاجتماعيِّ بين المستعمر

وفكر شعوب الأمة العربية، ولا سبيل إلى السيطرة على فكر الأمة إلا بفهم لغتها الكاشفة لهويتها الإسلامية، العاكسة لفكرها الحضاري الذي تفوقت به على الأوربيين في العصور الوسطى.

وخير دليل على ما نقول أنه بعد تَمَكُّن المستعمر من هيمنته العسكرية على دول الوطن العربي في مرحلة لاحقة على مرحلتنا هذه، شرع يسيطر على التعليم ومؤسساته، وأنشأ المدارس التبشيرية، والأجنبية، وفرض تعليم لغته الأجنبية، وحارب تعليم العربية الفصحى في دور التعليم، والصحافة، والمؤتمرات، والندوات؛ فاستحوذ على أقلام الكُتَّاب والمثقفين؛ إما بالترغيب وإما بالترهيب؛ لبَثِّ هذه الأفكار التي تنزع الأمة من لغتها وهويتها الثقافية والفكرية، فوَجَدَتْ دعوةُ المستشرق **كارل مرفر** إلى دمج شعوب المغرب العربي في الحضارة الأوربية صداها عند المطَبِّعِين مع الثقافة الغربية، فأطلق الخديوي إسماعيل مقولة: مصر قطعة من أوربا[cliii].

ومحصلة الأمر، أن الفكر الاستشراقي لم يلتزم بالمنهج العلمي الرصين ولا بالموضوعية في دراسة التراث الإسلامي والعقدي للأمة؛ لأنه صدر عن فكرة راسخة في أذهان المستشرقين هي تَصَيُّد الأدلة وإثباتها، تلك التي تدعم آراءهم في الطعن على ثوابت الدين، وتشكيك الأمة في عقيدتها.

2) رافد التبشير:

إنَّ الأفكار الأيديولوجية الكَنَسِيَّة في أوربا حول التبشير بالدين المسيحي في بلاد العرب أخذت طابَعها العسكري مع الحملات الصليبية؛ فهي حروب دينية يحركها ادّعاءٌ كاذبٌ بأن انتشارَ الإسلامِ كان بقوة السيف أو هكذا روَّج رجال الدين لأتباعهم. لكن تغيَّرَتْ الثقافة الأوربية بعد أنْ مُنِيَتْ هذه الحملات بالهزيمة وفشل مخططاتها التبشيرية؛ لدرجة أن السياسيين وجدوا اختلافَ ثقافتهم الدينية عن الثقافة الإسلامية، فصحة العقيدة أو فسادها هو المحكُّ في بناء الحضارة الإنسانية وتفوق صانعها؛ ومن هنا حدث صراع ثقافي بين الأمم داخل حضارة إنسانية واحدة. فإمَّا التبعية والاندماج في ثقافة المنتصر وحضارته، وإمَّا الاستقلال الفكري والتمرد على هذه الثقافة المتَغَلِّبة، رغم الإفادة من علومها ومعارفها، وإما التوازن الثقافي بأخذ ما يتفق مع تعاليم الإسلام، ولَفْظِ ما يخالفه.

لكنْ كيف يكون التبشيرُ بالدين المسيحي رافدًا للفكرِ الاستعماريِّ في الوقت الذي تَبَنَّى فيه الساسة والعسكريون والمثقفون الثقافةَ العلمانية التي تقوم على " فصل الدين عن الدولة "، وعلى مبدأ " الغاية تبرر الوسيلة "؟

قد ثبت فشل تجربة تزاوج السلطة والدين في الثقافة الأوربية في كثير من مراحل صراع الثقافات داخل الحضارة الإنسانية؛ نظرًا لفساد العقيدة المسيحية آنذاك. ولم يكن هذا الشعورُ ببعيدٍ عن رجالِ الكنيسة، وإنْ لم يُفْصِحُوا عنه؛ فهم سَدَنَة هذا الدين والمتكسبين من ورائه. ويبدو أنهم كانوا أسرع إلى تطبيق مبدأ العلمانية نفسها –الغاية تبرر الوسيلة– في المشهد الاستعماري للأمم والشعوب؛ حتى يحافظوا بذلك على الدين المسيحي بالتبشير به ونشره في أرض جديدة، بعد تشكُّك أوربا كلها في صحة عقائدها. ومن ناحية أخرى أرادوا تحقيقَ مكاسبَ اقتصاديةٍ للكنيسة، ممَّا جعل نشر المسيحية والتبشير بها هدفًا ثانويًّا، يُخْفِي وراءه مطامع شخصية واقتصادية لهؤلاء المبشرين [cliii]؛ ومن ثمَّ كان التعاون

بين الساسة والمبشرين نوعًا من تخفيف الاحتقان بينهما في المجتمع الأوربي؛ فَرَضِيَ كلُّ فريقٍ منهما باقتسام المكاسب المادية والمعنوية في المستعمرات الجديدة.

ولسنا بحاجة إلى إثبات العلاقة الوطيدة بين حركة الاستشراق وحركات التبشير، فكان من المبشرين مستشرقون طعنوا في الإسلام، وافتروا عليه، وشَكَّكوا في ثوابته؛ وادَّعَوا أنه سبب تخلف الأمة الإسلامية، وجمود فكرها في كل المجالات، فحركة الاستشراق تخدم أهدافَ التبشير؛ فعندما تضعف عقيدة المسلم؛ يكون من اليسير غرسُ مبادئ الدين المسيحي مكانها، وهذه سبيل مُعَبَّدَة إلى محاكاة ثقافة المستعمر المتَغَلِّب.

وهكذا تَشَكَّل الفكرُ الاستعماري في القرن التاسع عشر من رافدَي الاستشراق والتبشير، وأعيدت صياغة ثقافته من ثقافة دينية متعصبة إلى ثقافة علمانية تسعي إلى فرض هيمنتها الفكرية والعسكرية على الأمة الإسلامية ومُقَدَّرَاتها المادية والبشرية. وقد أدرك المستعمر خطورة اللغة في بناء الفكر أو هدمه، فسعى إلى دمج الدول العربية في حضارته بالتبعية الفكرية التي أخذت في القرن التالي مسمَّى: "العولمة"، أو "الحتمية الثقافية"، أو "الحتمية التكنولوجية"، وبذلك يضمن المستعمر السيطرة المادية على الشعوب العربية. وقد عرفنا أن حركة الاستشراق أمدت العسكريين بدراسات أنثروبولوجية عن الشعوب الإسلامية، وعاداتهم، ولهجاتهم، وتاريخهم، وجغرافية أراضيهم، وقدمت لهم منهجًا جدليًّا في حكم هذه الشعوب وإذعانها وخداعها. وما كان لهم أنْ يصلوا إلى ما وصلوا إليه في خدمة الاستعمار إلا بتعلُّم اللغة العربية وآدابها، وفهم أسرارها؛ فهي وعاء فكر الأمة العربية، وأهم مقومات ثقافتها؛ "فاللغة منهج للتفكير، ونظام للتعبير والاتصال. إنَّ اللغة لا تُعَبِّر عن الأفكار فحسب، بل تُشَكِّل الأفكارَ، فالتفكيرُ ليس إلا لغةً صامتةً" [cliii].

وبناء على ذلك؛ يمكن وصفُ هذه الحالة الاستعمارية مع اللغة العربية في القرن التاسع عشر —وهي لا شك فترة اضطراب ومقاومة، أعقبتها فترات من الاستقرار والهيمنة المؤقتة عسكريًّا، ثم السيطرة الفكرية والثقافية على المجتمعات العربية بالتغريب والانبهار بعد الاستقلال؛ ليستحيلَ الصراعُ العسكريُّ إلى استعمار فكري وثقافي بعيد المدى في القرنين التاليين— بأنها حالة تكوين ثقافة مضادَّة هدَّامة للثقافة العربية الإسلامية.

- **المحور الثالث: اللغة العربية وروافد نهضة الفكر العربي.**

شهدت اللغة العربية قُبَيْلَ القرن التاسع عشر ومع بداياته حالة من جمود الفكر والتخلف عند أهلها، إبَّان صراع المماليك والأتراك على حكم العالم الإسلامي، ثم محاولات تتريك الدواوين بإقصاء العربية، وفرض اللغة التركية لغة رسمية للبلاد بعد استحواذ الأتراك على السلطة. وقد واكبَ هذا القرارَ الرسميَّ بالتضييق على العربية رغبةٌ في إبعادِ أهلها عمَّا يشهده العالم من أفكار وتحولات ثقافية ومعارف جديدة، وهذا أمر لا شَكَّ ينعكس أثره على اللغةِ بالسلب أو الإيجاب؛ حيث تؤكد نظرية "التصنيف النوعي للغات" أنَّ كثيرًا من اللغات يموتُ سريعًا؛ بسبب القرارات السياسية، أو الاقتصادية، أو بسبب الأمراض الوبائية، كما حدثَ في البرازيل للغات الهندية، وكان عددها يُقَدَّرُ بأكثر من ألف لغة ولهجة في القرن التاسع عشر، ثُمَّ تقلص هذا العدد الآن إلى أقل من مائتَيْ لغة ولهجة [cliii].

ويمكن وصف هذا المشهد أو المأزق اللغوي للعربية الفصحى في ذلك الوقت بأنه حالةُ مخاضٍ عن حراك ثقافي وفكري يُعيدُ للعقلية العربية أَلَقَها، وتقدُّمَها، وبالتالي ينعكس أثر ذلك كله على اللغة في أثناء تفاعلها مع التطورات العالمية الجديدة، وعلومها ومصطلحاتها الحديثة، والتحيُّزات الثقافية لمجتمعاتها. قد آنَ الوقت لإحياء ثقافة عربية إسلامية "مقاوِمة" للثقافات الأجنبية الوافدة، يرى أصحابها أَنَّ اللغة العربية أهمُّ مقوّماتها، وأبرزُ ملامح هويتها، وسِرُّ بقاء حضارتها، وهي سلاحها في إيقاظ الوعي بقضايا الأمة في مقاومة الاستعمار، وإفشال مخططاته؛ لذلك واجهتْ كثيرٌ من الدول الإسلامية كُلَّ مخططات المستعمر التي تقصد إلى تغريب اللسان العربي في المؤسسات التعليمية، والصُّحف، والمؤتمرات، والندوات، ولم يتأثَّر بازدواجية اللغة غيرُ بلاد المغرب العربي تحت نِير الاستعمار الفرنسي؛ إذْ بقيت آثارُ لغته الفرنسية في خصائصهم النطقية في اللسان العربي إلى وقتنا الحاضر.

ورغم أنَّ اللغة تتأثر بأيِّ حراكٍ ثقافي للمجتمع؛ فإنها في حاجةٍ إلى وعي أهلها بضرورة تغيير واقعهم المتخلف، وإلى قرار سياسي، وإلى آليات تُسهم في النهوض بعد الجمود، والانتصار بعد الانكسار. وهذا ما سنجده في المشروع الحضاري والثقافي الذي كَرَّس له محمد علي باشا كُلَّ إمكاناته؛ للاستقلال بحكم مصر والبلاد العربية في الشام والحجاز بعيدًا عن الخلافة العثمانية، وبناء نهضة حديثة، منذ توليه حكم مصر سنة 1805م. وهذا سيفرض علينا بحث روافد تشكيل ثقافة المجتمع العربي الإسلامي الذي أُرِيدَ له بناءُ نهضته الحديثة، وانعكاسات ذلك على اللغة العربية في بدايات القرن التاسع عشر ونهاياته.

1) اللغة العربية وحركة الترجمة:

كانت الترجمةُ أَوَّلَ اتصالٍ ثقافيٍّ وفكري مباشر بالثقافات الأجنبية ولغاتها؛ فاتَّخذها محمد علي باشا وسيلة لإصلاح شعبه، وتثقيفه بعلوم الحضارة الأوربية الحديثة. ويرى كثير من المؤرخين أنَّه رغم إعجابه الشديد بعلوم الحضارة الغربية وثقافتها، فإنَّه كان متحيزًا لثقافةِ مجتمعه الإسلامي؛ إيمانًا منه بأن كل حركة إصلاحية لتكوين أمة قوية لن تستمر وتزدهر إلا مع امتداد أصولها في نفس شعبها؛ فلذلك احتفظ له بروحه وتقاليده، وأقام نهضته الحديثة على أسس متينة صحيحة، وَوَجَّهها الوِجهة الطيبة التي أفادت منها [cliii].

وقد تفاعلت اللغة العربية مع هذا الحراك الثقافي والفكري الجديد، وأفادتْ من نقل هذه العلوم الحديثة إليها، وساعد على ذلك إنشاء مطبعة بولاق عام 1820م؛ حيث وُجِّهَ نشاطُ الطباعةِ فيها إلى مخطوطات التراث العربي الإسلامي؛ لتنمية قدرات المترجمين، وصقل عباراتهم وأساليبهم، كما كَثُرَت القواميس ثنائية اللغة؛ لخدمة أغراض الترجمة، فأصبحت في متناول القراء الذين يريدون الاحتكاك بالثقافات الأجنبية للإفادة منها. وبذلك غَدَتِ الترجمةُ الثقافيةُ في هذه الفترة ترجمةً للمعارف المستفادة، بوصفها رافدًا معرفيًّا للعربية وتطويرًا ذاتيًّا لها، بالإضافة إلى ما أدخلته لغة الترجمة على صورة اللغة العربية في نظام بنائها [cliii].

ويمكن تقسيم الكتب المترجمة في عصر النهضة إلى نوعين: **ترجمات علمية**، وسياسية، وعسكرية، وطبية في النصف الأول من القرن التاسع عشر، إذْ كان الهدف الأساس منها تكوين دولة قوية عسكريًّا وعلميًّا، ومستقرة إداريًّا وسياسيًّا في علاقاتها الداخلية والخارجية على غرار الدول الأوربية المتفوقة آنذاك، كإنجلترا، وفرنسا.

أما النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فقد شهد **ترجمة الأجناس الأدبية**، كالشعر، والمنثورات كالقصص والروايات الحديثة، ويذكر جرجي زيدان أنَّ القصص والروايات المترجمة عن الفرنسية والإنجليزية والإيطالية كان هدفها التسلية، وقليلًا ما كان يُرَادُ بها الفائدةُ الاجتماعية أو التاريخية، كأشعار شكسبير، وهيجو، ودوماس، وموليير، وشاتوبريان، وراسين، ... وغيرهم [cliii].

ويلاحظ أن اللغة العربية قد تأثرتْ بنوعية الكتب المترجمة، وبالخلفية الثقافية للمترجمين، وتفاوتهم في إتقان الترجمة إلى العربية من اللغات الأجنبية، ويبدو ذلك في المظاهر الآتية:

أ) غلب على العربية الأسلوب العلمي، الذي يعتمدُ على الحقائق العلمية، لا على

المجاز اللغوي وأساليبه الجمالية في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

ب) تحرَّر الأسلوب العربي من المحسنات البديعية والسجع الذي كان سمة الكتابة، والتأليف، والتقليد في عهد المماليك، وحكم الأتراك، وهمَا عصرَا جمود فكري. لكن "أسلوب الإنشاء العصري تطرق إليه تراكيب أعجمية، اقتبسها الكُتَّاب من اللغات التي ينقلون عنها أو يطالعونها وهم لا يشعرون، ولكن أساتذة اللغة يرفضون ذكرها، وبلغاء الكُتَّابِ يتجنبون الوقوع فيها"[cliii].

ج) ركاكة الترجمات العربية؛ لعدم تمكن المترجمين من اللغة وأساليبها الفصيحة، وهذا ما دفع محمد على باشا إلى إرسال البعثات العلمية؛ لتلقي العلوم الأجنبية بلغاتها مباشرة، ثم ترجمتها بلغةٍ سليمة من قبل المبتعثين، ثمّ إنشاء مدرسة الألسن التي أشرف عليها رفاعة بك الطهطاوي. وللنهوض بلغة الترجمة، واطلاع المترجمين على العربية الفصحى في عصور ازدهارها اتجهت حركة الطباعة إلى بعض كتب التراث العربي والإسلامي.

د) عرفت الترجمة إلى العربية في هذا القرن نوعين من التعريب، تعريب "الكلمات والمصطلحات"، وتعريب "الأساليب" التي تعدّ من خصائص اللغات الأجنبية المنقولة إلى العربية.

وتعريب "المصطلحات الأجنبية" جائزٌ في اللغة على سنن العرب في تراكيبهم وأبنيتهم، وهو أمرٌ يتفق مع حال أهل العربية الذين لم يُشاركوا في وضع مصطلحات العلوم الحديثة في ذلك العصر، ومِنْ ثَمَّ غَصَّتِ الترجمات العلمية بالمعرب والدخيل على العربية؛ ممَّا دفع بعض المستشرقين إلى وضع ذيول للمعاجم العربية، وتأليف مصنفات الدخيل، مثل: "ذيل المعاجم العربية" لراينهات دوزي 1818م، وكتاب "في الكلمات الدخيلة في القرآن" لرودلف أدفوراك 1885م، وكتاب "الكلمات الآرامية الدخيل على العربية" لسيجموند أفرنكل 1886م، ... وغيرها من المؤلفات [cliii].

أما "تعريب الأساليب"؛ فيبدو في تَأَثُّر المترجمين بخصائصِ اللغات الأجنبية التي ينقلون عنها، وهم في ذلك على حالين اثنتين:

الأولى، الوقوع في أخطاء الترجمة الحرفية ذات الأسلوب العربي الركيك،

وسببها أنَّ المترجم يتبع في ترجمته طريقة حصر الكلمات والمصطلحات، ثم تحديد معانيها وترجمتها حرفيًّا، دون العناية بالصياغة والأسلوب [cliii]، وهذا هو الغالب على الترجمات في النصف الأول من هذا القرن؛ فأغلبها ترجمات للعلوم الأوربية الحديثة.

والحال الثانية ، التأثُّر بالأساليبِ الأعجمية العصرية، خاصة في ترجمة الأعمال الأدبية والشعرية الأجنبية، مع بدايات النصف الثاني من هذا القرن، ويعود هذا التأثر إلى ثلاثة أسباب:

– أولهما، الإعجاب بالصور والمجازات والأخيلة المترجمة، وفي سبيل الحفاظ عليها كما هي في لغاتها الأم وُضِعَتْ في تراكيب خاصة بهذه اللغات تختلف عن تراكيب العربية وأساليب تأليفها.

– وثانيهما، جهل المترجم بمقابلات هذه الصور والأخيلة وطرائق التعبير عنها في تراثنا العربي، وهي لا شك كثيرة وملائمة لأغراض الأمم؛ إذْ هي ممّا توافقت عليه طباع البشر في التعبير عن مشاعرهم وأفكارهم.

– وثالثها، مسلمة لغوية تفيد أن اللغة وعاء الفكر، ومَنْ يمارس اللغة تعليمًا، وتعلُّمًا، وحديثًا يتأثر بفكر أهلها، وبطرائق تعبيرهم عن ذلك الفكر. فقد مالَتْ طريقة الكتابة بالعربية إلى الجملِ القصيرة، وقَصْرِ العبارة على أداء معنى واحد، واستحداث صيغ تؤدي معانيَ جديدة، والتجوز في بعض المفردات، كل ذلك كان بتأثير من الترجمة في الفكر العربي [cliii].

2) اللغة العربية والاستشراق اللغوي:

تشكل دراساتُ المستشرقين للغة العربية وعلومها أحدَ روافد الثقافة بالنسبة للعقلية العربية، بعد انقطاع الأمة عن تراثها الفكري ردحًا من الزمن؛ فالاستشراق مصدر من مصادر المعلومات التاريخية عن العالم الإسلامي. وقد مَرَّتْ جهود المستشرقين وإسهاماتهم اللغوية بطورين اثنين [cliii]:

الأول، طور " **تعلُّم اللغة العربية** "، قبل القرن التاسع عشر داخل دوائر الكنيسة لأسباب تبشيرية، ومنها رغبة رجال الكنيسة في ضمِّ الكنائس الشرقية في إطار الكاثوليكية الغربية. ولعل هذا الارتباطَ بين الاستشراق والتبشير في هذا الطور جعل حركةَ الاستشراق غيرَ مُبَرَّأةٍ من الدوافع الأيديولوجية، الداعية إلى تشكيك الأمة في دينها وعقيدتها؛ وتراثها وحضارتها؛ فكان تعلُّم العربيةِ إحدى وسائل الغزو الفكري للشعوب العربية فيما بعد.

والثاني، طور " **البحث العلمي للغة العربية** " بمفهومه الحديث مع بدايات القرن التاسع عشر، حيث أقبل عددٌ محدود من المستشرقين على دراسة التراث اللغوي؛ بدافع الإعجاب والاطلاع على حضارات الأمم وثقافاتها ولغاتها، وقد

ساعدهم تحرُّرهم من التعصب والتشدُّد ضد الإسلام إلى إسهامات علمية مُنْصِفَة أقرب ما تكون إلى فهم تراث هذه الأمة، واحترام فكرها الحضاري؛ بل إنَّ منهم مَنْ اهتدى إلى الإسلام، وآمنَ برسالته العالمية السامية.

وأخذت حركةُ الاستشراق اللغويّ طابعها الأكاديمي من خلال الجامعات والمؤسسات العلمية في الغرب، وذلك بإنشاء أقسام للغة العربية، وإسناد رئاستها إلى أحد المستشرقين، كمدرسة اللغات الشرقية الحية التي أُسِّسَتْ في باريس 1795م. ثمَّ أُنْشِئ في جامعة لندن منصبُ الأستاذية لعلوم العربية مع مطلع القرن التاسع عشر، ثمَّ أُسِّسَ معهد اللغات الشرقية بلندن، وكان رئيس قسم اللغة العربية فيه المستشرق الإنجليزي توماس أرنولد (1864–1930م) صاحب كتاب "دعوة الإسلام"، كما شُكِّلَتِ الجمعية الآسيوية الملكية التي نظمت حركة الاستشراق تنظيمًا علميًّا مستقلًا، يستهدف الأغراض السياسية والتبشيرية [cliii].

وقد أفادتِ اللغة العربيةُ من دراسات المستشرقين للتراث اللغوي عند العرب في مجالين:

أولا– تحقيق التراث اللغوي:

تصدر عنايةُ المستشرقين بتحقيق التراث العربي عامة، واللغوي خاصة عن وعي بأنه هو السبيل إلى فهم الفكر الإسلامي، ومعرفة عوامل ازدهار حضارته في العصور الوسطى التي شهدتْ تَخَلُّفَ أوربا فكريًّا وثقافيًّا. ومهما كانت الأسباب والأغراض المحَرِّكة لهذا النشاط الاستشراقي؛ فإنَّ العبرة بالنتائج التي انعكستَ سلبًا وإيجابًا على الفكر العربي في القرن التاسع عشر، وما يليه. فقد حصر الدارسون جهودهم وإسهاماتهم في خدمة تراث الأمة الإسلامية في خمسة مجالات: أولها، البحث عن المخطوطات وجمعها ونقلها وحفظها. وثانيها، فهرسة المخطوطات وتوثيقها، وتصنيفها. وثالثها، تحقيق كتب التراث. ورابعها، دراسات حول التراث وعناية بالمعاجم. وخامسها ترجمة التراث إلى لغاتهم الأوربية [cliii].

وتؤكد الدراسات الأنثروبولوجية أنَّ تراثَ أية أمة مُلْكٌ لأهلها أولًا؛ بحكم أصالته الفكرية في بيئته وموطن تكوينه، وكتابته بلغةٍ تمثل وعاءَه الفكري والثقافي. ومع ذلك شهدت فترة عصر النهضة الحديثة للعرب تبعية علمية –وليست تبعية فكرية– لجهود المستشرقين؛ نظرًا لاستحواذهم على المخطوطات العربية التي فَرَّط فيها العربُ طوعًا أو كرهًا؛ بمصادرتها، وسرقتها من المساجد، والمكتبات العربية والإسلامية، أو بشرائها من أصحابها، ثم نقلها إلى مكتبات أوربا وجامعاتها؛ إذْ بلغ عدد المخطوطات العربية فيها في أوائل القرن التاسع عشر مائتين وخمسين ألف مجلد [cliii].

وبالتالي؛ لم يكن لعلماءِ العربية إسهاماتٌ تُذْكَر في مجال تحقيق التراث الثقافي خلال هذه الفترة، إذا ما قُورِن بإسهاماتهم ومزاحمتهم للمستشرقين في هذا المجال في القرن العشرين، وذلك بإعادة تحقيق تراثهم من خلال المحاولات الفردية، أو المؤسسات الأكاديمية ودور النشر؛ بقصد نشره، وتثقيف المجتمع، أو تصحيحه، أو ربما تنقيته من أخطاء المستشرقين التي وقعوا فيها عن قصدٍ أو عن غيرِ قصدٍ.

ثانيا– تطبيق المنهج العلمي في البحث اللغوي:

اعتمدَ المستشرقون في القرن التاسع عشر على المنهج المقارن في دراسة العربية والساميات؛ لوضوحه ودقة نتائجه في تحديد أوجه الشبه والاختلاف بين المستويات اللغوية للغات واللهجات داخل اللغة الأم، أو الأسرة اللغوية الواحدة. كما طبقوا المنهج التاريخي على دراسة التغيُّرات الطارئة على اللغة وظواهرها خلال عصورها المتتابعة، وذلك بتحليل أصواتها، وأبنيتها التركيبية والدلالية؛ للوصول إلى أسباب هذه التغيُّرات؛ انطلاقًا من حقيقة أن اللغة متنامية ومتطورة في ألفاظها بتطور حاجات المجتمع وأغراضهم. وقد ساعدهم في تطبيق هذا المنهج تلك الذخيرةُ الهائلةُ من المخطوطات العربية التي جمعوها ونقلوها إلى مكتبات أوربا.

وقد دخلت اللغة العربية من خلال تطبيق هذين المنهجين العلميين إلى طور البحث اللغوي الحديث المِغْنِيّ بدراسة الواقع اللغوي، ورصد ظواهر اللغة الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية. وتنوعت موضوعات البحث اللغوي عند المستشرقين في الدراسات النحوية والدلالية، والتأليف المعجمي، وتاريخ اللغة العربية، ومنها على سبيل المثال [cliii].

- **دراسات في النحو العربي** : قام بها كل من المستشرق الفرنسي دي ساسي (1758-1838م)، والمستشرقين الألمان: فلايشر (1801-1888م)، وكاسباري (1814-1900م)، وريكندوف (1863-1923م)، ونولدكه (1836-1930م).

- **التأليف المعجمي**: وضع المستشرق الإنجليزي إدوارد لين (1801-1876م) مشروع معجم عربي إنجليزي؛ معتمدًا فيه على المعاجم العربية. ووضع المستشرق الهولندي دوزي (1820-1883م) معجمًا مكملًا للمعجمات العربية.

وكان من آثار تطبيق المنهج العلمي في دراسة اللغات أنْ بحثَ المستشرقون لهجات اللغة العربية، وامتد نشاطُهم اللغوي إلى العاميات واللهجات الحديثة في الوطن العربي، وفتحوا باب التدريس لها في جامعاتهم ومعاهدهم. ويذكر الدكتور محمود فهمي حجازي أن النصف الثاني من القرن التاسع عشر شهد اتجاهين للتأليف في اللهجاتِ العربيةِ:

الأول، اتجاه علمي أكاديمي ، مثَّلته مؤلفات المستشرقين، نحو: "إضافات صغيرة إلى معجم العامية العربية" للسويدي المكفست، و"دراسات في اللهجات العربية الجنوبية" للسويدي لاندبرج، وغيرهما في عاميات الدول العربية في عمان، وزنجبار ودمشق، وغيرها من المدن.

والثاني، اتجاه تعليمي، يهدف إلى وضع مجموعة من الكتب لتعليم الأوربيين التحدث بلهجة ما من لهجات الدول العربية المستعمرة [cliii].

وقد وضعَ بعضُ المستشرقين مدعومين بالقرارات السياسية للاستعمار اللغةَ العربية في محنة "الدعوة للعاميات واللهجات العربية الحديثة"؛ لتكون لغة الكتابة، ولغة العلم في الوقت نفسه. وقد اختلفتِ الآراءُ في المجتمعات العربية حولها بين مؤيدٍ ومعارضٍ. وبعيدًا عن الاستطراد في مناقشة هذه الآراء؛ فإنَّ هذه الدعوة قامت على مغالطة "علمية ومنهجية"، فالعامية إحدى صور اللغة الأم، تطورت عنها، وسارت إلى جانب الفصحى في كل عصر من عصورها، وهذا أمر تشترك فيه كل اللغات الطبيعية، وليست العربية بِدْعًا في ذلك.

وتُعَمِّقُ مثلُ هذه الدعوات مظاهرَ الخلاف بين الصورة المكتوبة (الفصحى)، والصورة المنطوقة (العاميات) في العربية. فبينما تعدُّ الصورة الأولى نموذجًا للوحدة اللغوية التي فيها تتأكد الذات العربية، وتتوحد أهدافها تجاه قضاياها المصيرية؛ تعكس الصورة الثانية التعددية اللغوية، والخلل في النظم الثقافية والتعليمية، وتشير إلى ضعف العلاقات الاجتماعية والسياسية داخل الوطن الواحد [cliii]. ومن هنا ندرك خطورة هذه الفكرة الاستشراقية على اللغة العربية ومجتمعاتها، ويتأكد لنا أن حركة الاستشراق اللغوي كانت تعمل لأهداف استعمارية وتبشيرية للسيطرة على العرب فكريًّا وعسكريًّا، رغم وجود قلة من المنصفين المعجبين باللغة العربية وعلومها، الذين غَلَّبُوا قيمَ العلم ومناهجه على الأهواء والنزعات القومية عند غيرهم.

3) اللغةُ العربيةُ والصحافة:

شهد القرن التاسع عشر ظهور نوعين من الصحف التي صدرت بمصر: **الأول، صحف رسمية**، ظلَّت الدولة تصدرها حتى عام 1857م، وقد اتَّجهت رسالتها الإعلامية نحو تثقيف الموظفين، وجمهور مُعَيَّن من الشعب في الشئون الإدارية، وإنجازات الدولة الاقتصادية والزراعية والعسكرية، وغيرها من القطاعات، ومن هذه الصحف: جورنال الخديوِ 1813م، والوقائع المصرية 1828م، والجريدة العسكرية 1833م، والحوادث التجارية والإعلانات الملكية 1848م. **والنوع الثاني، صحف أهلية**، وهي ثمرة نهوض الصحافة المصرية في عهد الخديوِ إسماعيل، حيث شَكَّلَتِ الرأي الآخر (فكر المعارضة)، مثل جريدة "وادي النيل" 1867م، ونزهة الأفكار

1870م، وجريدة الأهرام 1976م، وغيرها من الصحف المملوكة للأشخاص [cliii].

وقد تفاعلت اللغةُ العربية مع رافد الصحافة آنذاك، بوصفه وسيلة إعلامية مقروءة تُوَظِّفُ اللغة الجذابة في استقطاب الجماهير، وتوجيه فكرهم، وبناء ثقافتهم، سواء أكانت ثقافةً "مقاوِمة" للاحتلال الأجنبي، أم ثقافةً "معارِضة" لسياسات البلاد التي تدهورت في ظلِّها الحياة الاقتصادية والفكرية. ومِنْ ثَمَّ لا يمكن إغفالُ هدف الرسالة الإعلامية، ومادتها، والجمهور المخاطَب بها في تحديد وضع اللغة العربية، وملامحها في ذلك الوقت.

ومهما يكن من أمر، فإنَّ الصحافةَ المصريةَ عرفت " **ازدواجية**" اللغة و"**أُحاديتها**" في بعض الصحف الرسمية، وكان أشهرها جريدة "الوقائع المصرية"، الصادرة منذ عام 1828م، حيثُ صدرت باللغتين التركية والعربية في العدد الواحد، وفي نفس الصفحة. ولُوحِظ أن النص العربي المقابل للنص التركي في الجريدة كانت لغته العربية ركيكة مشحونة بالألفاظ والتراكيب التركية؛ لكنْ بمرور الزمن وتطور الأحداث سيطرت اللغة العربية؛ لتصبح اللغة الرسمية لهذه الجريدة فيما بعد [cliii].

وترجع هذه الازدواجية اللغوية إلى أنَّ الجريدة صدرت عن الدواوين الرسمية للبلاد، ولم تكن هذه الدواوين قد عُرِّبَتْ بَعْدُ، فكان جمهورها من الموظفين الأتراك والعرب معًا، كمَا أنَّ المادة الصحفية المقدمة لم تتطرق إلى موضوعات أدبية، أو تحقيقات فكرية أو ثقافية عن المجتمع العربي أو المصري.

أما "**أُحادية**" اللغة؛ فقد عرفتها الصحف الرسمية بعد تعريب الدواوين، وعقب صدور قرار سياسي من الخديوِ إسماعيل بإصدار الصحف باللغة العربية، والتشجيع على ذلك؛ وكان الهدفُ من ذلك التضييقَ على الصحف الأجنبية التي وجهت أقلامها وفكرها الاستعماري إلى زعزعة الاستقرار في البلاد، من خلال انتقاد السياسات الداخلية[cliii].

وفي هذا الاتجاه صدرت الصحف الأهلية؛ التي تُخاطب جمهورها العربي، وتقدِّم له تحقيقاتٍ ثقافية، وأدبية، وفكرية حول قضايا مجتمعه؛ فكانت اللغة العربية هي المسيطرة على لغة الصحافة، وقد تزامن ذلك مع تَوجُّهٍ فكري جديد، تزعمه السيد جمال الدين الأفغاني، الذي أراد النهوض بالشرق الإسلامي ووحدته على أسس ثقافية اجتماعية، وكان من تلاميذه محمد عبده، وسعد زغلول، وعبد الله النديم، وغيرهم من أعلام اللغة والأدب، والفكر، والسياسة. ولذلك كانت العربية وسيلتهم في تغيير الفكر الجامد، وبعث الثقافة، ومناهضة الاستعمار الأجنبي، من خلال صحيفة "العروة الوثقى" التي صَدَرَتْ في باريس، عام 1884م. ومن هنا أصبح للصحف، من خلال كُتَّابها ومحرريها وتقاليدها اللغوية شخصيتُها اللغوية، وقاموسُها، وأساليبُها اللغوية. فما دام للغة مضامينُها التي تُخاطب ضميرَ القارئ ووعيه ووجدانه؛ فإنها من غير شكٍّ تترك أثرًا عميقًا في وَعْيِه الوطني والثقافي والسياسي، وتُسْهِم في تشكيل صورة الأمن القومي عن طريق ذلك الوَعْيِ التي تشكله لغة النصوص الصحافية [cliii].

لذلك أدرك المستعمر خطورة البعد اللغوي في الصحافة، وتأثيرها على القارئ وفكره، فسعى إلى تكوين ثقافة "مضادة" لثقافة المجتمع العربي المناهض له، ومَوَّل بعض الصحف المناوئة للصحف الوطنية، كجريدة "الأعلام" 1884م، والمقطم 1889م، وصحيفة "الزمان" التي أعاد الإنجليز إصدارها بعد منع صدورها عام 1882م. وقد لاحظ بعض المؤرخين لحركة الصحافة في مصر أن عدد الصحف التي صدرت في العقد السابق للاحتلال (33) جريدة ومجلة، منها (30) صحيفة سياسية، و(3) صحف علمية وأدبية. وأما في العقد الأول للاحتلال فقد صدرت (53) صحيفة ومجلة، منها (40) صحيفة علمية وأدبية وفكاهية وتجارية، و(13) صحيفة سياسية. وفسُّروا هذا التفاوتَ في المادة الصحفية المقدمة للجمهور بأن ذلك لم يكن انعكاسًا واقعيًّا لثقافة المجتمع "المقَاوِمة"؛ بل لصرف المجتمع بعيدًا عن الحديث في السياسة الاستعمارية، أو بمعنى آخر رغبة المستعمر في فرض ثقافته وتبعيته الفكرية على المجتمع العربي [cliii].

4) اللغة العربية والثقافات الأجنبية في التعليم:

للسياساتِ التعليميةِ دورٌ كبيرٌ في التحوُّلات الفكرية داخل المجتمعات، ولا شكَّ أنَّ التحيُّزات الثقافية في تلك السياسات قد مهَّدت الطريق إلى مبدأ (تعريب اللسان، أو تغريبه) في تدريس العلوم؛ حيث شهد القرن التاسع عشر صراعَ الثقافات الأجنبية مع الثقافة الإسلامية، وكانت لغةُ كُلِّ ثقافةٍ منها هي السبيل في السيطرة الفكرية على المدارس والمؤسسات التعليمية في مصر.

فالثقافة الإيطالية وجدت طريقها إلى المجتمع المصري مع نهايات القرن الثامن عشر، وأوائل القرن التاسع عشر، وكانت لغتها هي اللغة الأجنبية الأولى في المدارس المصرية؛ بفضل جهود الراهبات الفرنسسكان. ثمَّ نافستها الثقافة الفرنسية ولغتها؛ فَحَلَّتْ محلَّها بعد الحملة الفرنسية على مصر، إلى أن صارتْ جزءًا من لغة التخاطب بين بعض طبقات

المجتمع. ثمَّ سعى الاحتلال الإنجليزي لمصر منذ عام 1882م إلى استبدال ثقافته بالثقافة الفرنسية المسيطرة، وذلك بوضع سياسة تعليمية جديدة في المدارس الحكومية تفسح المجالَ لتدريس لغته الإنجليزية، وجعلها اللغة الأجنبية الأولى في تدريس العلوم [cliii].

وبينما وَجَدَ تعليم اللغات الأجنبية، ونشر المدارس الأجنبية مجالًا رحبًا في سياساتِ التعليم بمصر؛ عانى التعليمُ الدينيُّ من الإهمال والإقصاء، وتَمَّ حصره في الأزهر الشريف، والكتاتيب، ومُورِسَ عليه تضييقٌ في النفقات، وفي عدد الطلاب. وكان لذلك أثرُه على تعليم اللغة العربية والإقبال عليها؛ فهي –قبل أيّ شيء– لغةُ الدين، ووعاء الثقافة الإسلامية التي تصدر عن القرآن والسنة النبوية المطهرة، ومِنْ ثَمَّ نَبَتَتْ بذور التغيير الاجتماعي والثقافي في المجتمع المصري، وهي ميل الكثيرين إلى الثقافات الأوربية، والبعد عن الثقافة الإسلامية وتراثها؛ نظرًا لوجود لغات أخرى غير العربية في التخاطب داخل المجتمع.

وفي إطار حماية الثقافة الإسلامية ولغتها العربية من غزو الثقافات الأجنبية ولغاتها في مجال التعليم آنذاك؛ سعتْ بعضُ الحركات الوطنية إلى مقاومة سياسة الاحتلال التعليمية، وذلك بإنشاء "جمعية التعليم المصرية" عام 1885م، وغيرها من المدارس التي دعتْ إلى إنشائها الحركة الوطنية في مصر بجهود ذاتية، وبالتالي "اتجه الشعب المصري بغريزته نحو تعليم نفسه ....؛ ليعوضوا النقص والتقتير الذي قصده الاحتلال، وقد تناولت هذه الجهود الوطنية التعليمية جميع مراحل التعليم؛ حتى فاقت إلى حدٍّ كبير جميع الجهود الحكومية في هذا الميدان ..."[cliii].

ورغم مزاحمة اللغات الأجنبية للغة العربية في هذه الفترة، وضعف اللغة الفصحى على ألسنة أبنائها؛ فإن الحركات الوطنية قد أدركت أهمية اللغة العربية في التعليم، وفي خلق ثقافة "مقاوِمة" لخطط الاستعمار الفكرية والثقافية على مصر وغيرها من بلاد الوطن العربي. ومع ذلك اختلفت ردود أفعال هذه البلاد في مقاومة خطة (تغريب اللسان العربي)، فكثير من أهلها تمسك بثقافته وهويته ولغته؛ فرفض التبعية الفكرية والثقافية للاحتلال، وقليل منهم تأثر بهذه النزعة التغريبة طوعًا أو كرهًا؛ فكان لذلك آثاره السلبية على لغته القومية، كما حدث في بلاد المغرب العربي تحت نِير الاستعمار الفرنسي وسياساته التعليمية.

وهذا التفاوت في المكاسب والخسائر؛ خلال الصراع الثقافي والفكري بين الشعوب العربية والثقافات الأجنبية كشف بمرور الزمن —حتى بعد تحرر الشعوب العربية– عن تغيُّرات في مجتمعات هذه الشعوب، ونظرتها إلى تعليم اللغات، وكان أخطرها احتقار اللغة العربية، وإكبار اللغات الأجنبية، ولعل هذه النظرة عكست شعورَ بعض العرب بالتغريب الفكري، وإعجابَهم بالمنتصر المتفوق في العلوم والمعارف الحديثة. ولذلك كان الشعور بالتغريب في مجتمعاتنا العربية دافعًا إلى تبنِّي سياسة "تعريب" العلوم بوصفها مطلبًا قوميًّا؛ "إذْ ليس من المقبول شكلًا وموضوعًا أن يظل العلم (أو بعض فروعه) في البلاد العربية أسيرًا للغات أجنبية تفكيرًا وتناولًا وتحصيلًا حتى هذه اللحظة. ذلك أنَّ إيثار اللغات الأجنبية على لغتنا القومية فيه تقليلٌ لشأنها، وإضعافٌ لمنزلتها بين أهلها"[cliii].

- **خاتمة:**

– اللغة وعاء الفكر والثقافة في الحضارة الإنسانية؛ ولذلك كرَّست الدول الأجنبية جهودها في نشر ثقافتها؛ من خلال الترويج للغاتها في المؤسسات التعليمية، والمؤتمرات، والصحف؛ منذ هيمنتها العسكرية على الشعوب العربية، وانتهاء بالغزو الفكري، وإخضاع هذه المجتمعات للحتمية الثقافية أو التكنولوجية.

– سعى الاستعمار الأجنبي إلى غزو العرب فكريًّا عن طريق تعلُّم اللغة العربية وفهم أسرارها؛ وبهدف التواصل الاجتماعي من البلاد الناطقة بها، ثم زعزعة الثقافة الإسلامية، وهدم ثوابتها، وتهيئة الظروف إلى استبدال الثقافات الأجنبية بها.

– فَطِن العرب بغريزتهم وتمسكهم بثقافتهم الإسلامية إلى مخططات الاستعمار، واستطاعوا بعث لغتهم مرة أخرى بالنهوض الفكري، والإفادة من العلوم الأوربية الحديثة، دون الوقوع في "التبعية الفكرية" للاستعمار الأوربي. فخلقت اللغة العربية ثقافة "مقاومِة" للثقافات الأجنبية في تلك الفترة؛ للحفاظ على تراث الأمة، وهويتها، وثقافتها الإسلامية.

***

المصادر والمراجع

1) **أحمد بك عيسى**: التهذيب في أصول التغريب (122-123). القاهرة، الطبعة الأولى 1342هـ-1923م.

2) **جاك تاجر** : حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر. مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، طبعة 2013م.

3) **جرجس سلامة** : أثر الاحتلال البريطاني في التعليم القومي في مصر (1882م-1922م). مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى 1966م.

4) **جرجي زيدان**: تاريخ آداب اللغة العربية

5) **جمال الدين الشيال**: تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي. دار الفكر العربي، القاهرة، طبعة 1951م.

6) **جوزيف فندريس** : كتاب اللغة، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، محمد القصاص. المركز القومي للترجمة، وزارة الثقافة المصرية، طبعة 2014م.

7) **صلاح محمد محمود جرار** : الصحافة والأمن اللغوي، بحث ضمن، كتاب ملتقى دور التعليم والإعلام في تحقيق أمن اللغة العربية، جامعة نايف للعلوم الأمنية، كلية اللغات والترجمة.

8) **رامي عطا صديق**: الصحافة المصرية في القرن التاسع عشر: تاريخها وافتتاحياتها. مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، الطبعة الأولى 1427هـ-2006م.

9) **عبد الرحمن بن خلدون** : مقدمة ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم، تقديم وتحقيق إيهاب محمد إبراهيم. مكتبة ابن سينا، القاهرة، الطبعة الأولى 2009م.

10) **عبد المتعال محمد الجبري** : الاستشراق وجه للاستعمار الفكري. مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى 1416هـ-1995م.

11) **علي أحمد مدكور**: التربية وثقافة التكنولوجيا. دار الفكر العربي، القاهرة، طبعة 2006م.

12) **علي بن إبراهيم النملة** : إسهامات المستشرقين في نشر التراث العربي الإسلامي. مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، الطبعة الأولى 1996م.

13) **فؤاد زكريا**: خطاب إلى العقل العربي. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، طبعة 201م.

14) **كمال بشر**: اللغة العربية بين الوهم وسوء الفهم. دار غريب، القاهرة، طبعة 1999م.

15) **مصطفى الخالدي، د. عمر فروخ**: التبشير والاستعمار في البلاد العربية. منشورات المكتبة العصرية، بيروت، طبعة 1953م.

16) **مصطفى السباعي** : الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم. دار الوراق للنشر والتوزيع، المكتب الإسلامي، بدون ط/ ت.

17) **محمود أحمد نحلة**: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر. دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، طبعة 2014م.

18) **محمود فهمي حجازي**: البحث اللغوي. دار غريب، القاهرة، طبعة 2014م.

19) نهاد الموسى: اللغة العربية في العصر الحديث، قيم الثبوت وقوى التحول. دار الشروق، عمان، الأردن، الطبعة الأولى 2007م.

الهوامش

(cliii) انظر: الفرق بين الثقافة الجمعية؛ بوصفها سمة المجتمعات قاطبة، والثقافة الفردية الانتقائية التي تصقل الفرد وتُميِّز شخصيته. انظر د. فؤاد زكريا: خطاب إلى العقل العربي (16-18).

(cliii) د. نهاد الموسى: اللغة العربية في العصر الحديث، قيم الثبوت وقوى التحول (38).

(cliii) انظر د. علي أحمد مدكور: التربية وثقافة التكنولوجيا (53-84).

(cliii) انظر مقالته "اللغة وأداة التفكير" في صدر كتاب اللغة، لجوزيف فندريس (8).

(cliii) مقدمة ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم (157).

(cliii) انظر د. عبد المتعال محمد الجبري: الاستشراق وجه للاستعمار الفكري (133).

(cliii) انظر الأهداف العلمية والدينية والسياسية للاستشراق ملخصًا عن د. مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم (25-33).

(cliii) انظر: مقدمة ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم (453).

(cliii) انظر د. عبد المتعال محمد الجبري: الاستشراق وجه للاستعمار الفكري (127).

(cliii) انظر بواعث التبشير الحقيقية، د. مصطفى الخالدي، د. عمر فروخ: التبشير والاستعمار في البلاد العربية (34-57).

(cliii) د. علي أحمد مدكور: التربية وثقافة التكنولوجيا(156).

(cliii) انظر د. محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر (127).

(cliii) انظر جاك تاجر: حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر (23). ود. جمال الدين الشيال: تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي (10).

(cliii) د. نهاد الموسى: اللغة العربية في العصر الحديث، قيم الثبوت وقوى التحول (84-85).

(cliii) انظر: تاريخ آداب اللغة العربية (208/4).

(cliii) جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية (4/).

(cliii) انظر د. أحمد بك عيسى: التهذيب في أصول التغريب (122-123).

(cliii) انظر: المصدر السابق (113).

(cliii) انظر جاك تاجر: حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر (146)

(cliii) انظر د. محمود فهمي حجازي: البحث اللغوي (89-90)، د. مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم (20-25).

(cliii) انظر: د. عبد المتعال محمد الجبري: الاستشراق وجه للاستعمار الفكري (186).

(cliii) د. علي النملة، إسهامات المستشرقين في نشر التراث العربي الإسلامي (24).

(cliii) انظر: د. مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم (19).

(cliii) انظر د. محمود فهمي حجازي: البحث اللغوي (89، 93، 94).

(cliii) انظر بتصرف: المصدر السابق (96).

(cliii) انظر مناقشة ضافية عن سيطرة العاميات: د. كمال بشر، اللغة العربية بين الوهم وسوء الفهم (243-270).

(cliii) انظر بتصرف رامي عطا صديق: الصحافة المصرية في القرن التاسع عشر: تاريخها وافتتاحياتها (16-29).

(cliii) انظر جاك تاجر: حركة الترجمة بمصر في القرن التاسع عشر (43).

(cliii) رامي عطا صديق: الصحافة المصرية في القرن التاسع عشر: تاريخها وافتتاحياتها (23).

(cliii) صلاح محمد محمود جرار: الصحافة والأمن اللغوي (213).

(cliii) انظر: رامي عطا صديق: الصحافة المصرية في القرن التاسع عشر: تاريخها وافتتاحياتها (33-34).

(cliii) د. جرجس سلامة: أثر الاحتلال البريطاني في التعليم القومي في مصر(233-235).

(cliii) المصدر السابق (299).

(cliii) د. كمال بشر: اللغة العربية بين الوهم وسوء الفهم (227).

***